خاتمة سورة المجادلة.. وبناء الفرد والجماعة

« ١ »

لعل من الخير أن أذكِّر بأن الرحلة التي يقضيها المسلم في رحاب المعايير المقررة للموالاة والمعاداة والتي يقطعها مع آيات مباركات من مثل سور «المنافقون» و«آل عمران» و«المائدة» و«التوبة» ترى المنطلق إليها: موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه الضالِّ في كلمات هابطات ألقاها الشيطان على لسانه، تنمُّ عن نفاق ضرب على قلبه بالأسداد، وفي هذه الكلمات ما يدعو إلى عدم الإنفاق على المهاجرين عليهم الرضوان، والعمل على أن يضطرب الوضع الاقتصادي في المجتمع المسلم، كيما يتفرَّق من حول رسول الله ﷺ عنه.. إلى كلمات أخر تنضح بالسم الزعاف يزعم فيها أن العزة له ولزمرته من المنافقين ــ هكذا زعم، فخسِئَ كيف زعم ــ وأقسم أنه عند الرجوع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل... قال هذا، وكأنه ولي الأمر هناك.

ثم أقسم كاذباً أمام رسول الله ﷺ أنه لم يقل متخذاً من أيمانه جُنةً، فصدَّ عن سبيل الله ونزلت سورة «المنافقون» وفيها قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي الإيماني المستنير: يتلخص في أنه كان على استعداد لأن يزيح رأس أبيه من الطريق إن أراد رسول الله ذلك، ثم برهن لأبيه بشكل عملي أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا لرأس المنافقين، عبد الله بن أبي ومن حوله من مرضى القلوب مُعطَّلي العقول الطغام!!.

وفي أعقاب الرحلة المومى إليها: نحن على موعد مع آيات كريمات في سورة «المجادلة» المدنية تكشف عن وقائع تعكس صدق المواقف عند أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم يواجهون الامتحان الصعب على طريق الريادة وبناء المجتمع المسلم القدوة بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، في أعقاب جاهلية جهلاء لا تفرِّق بين الغث والسمين.

كما تعكس التزامهم الدقيق بالمعايير التي حددتها معالم الكتاب الكريم والسنة والمطهرة للموالاة والمعاداة، والحب والبغض!.

فالموالاة عندهم ـ كما أراد الله ورسوله أن تكون ـ: لله ولرسوله والمؤمنين، وتراهم وحبُّ الله ورسوله والجهاد في سبيله، هو المقدَّم على حب كل قريب مهما بلغت قرابته وصلته، ومن كل مبتغىً في هذه الحياة، مهما كان شأنه وموقعه من النفوس!!.

ذلك قول الله جل ثناؤه في خاتمة السورة المشار إليها، بدءاً من الآية العشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لقد تنزلت هذه الآيات، ورحلة البناء تتحرك خلاياها وتتكاثر على كل صعيد، والمؤمنون غير غافلين عما كان يعجُّ به المجتمع في سابق الأمر، من رواسب الجاهلية، وآثار التمزق القبلي والانحراف الوثني، وفكر اليهود والمنافقين.

وليسوا قاعدين عن مواجهة التعاون الظالم والتحالف غير المقدَّس بين المشركين واليهود والمنافقين وما يبيته أعداء الله خارج الحدود، مما يظهر أو يخفى حسب الظروف والملابسات.

غير أن بناء المسلم على الإيمان والمعرفة، والصلةِ المنوَّرة بالله عز وجل، ناهيك عن وعي الواقع، وسلامة الغاية والوسائل إليها: كل أولئك، جعل الجماعة المؤمنة قادرة ـ بعون الله ـ على تجاوز العقبات والانتصارِ على ما يعترض طريق الحق وأهله من الصعاب، وتحقيقِ ما نُدبت إليه من رفع القواعد لبُنية حضارة سامقة في مجتمع مسلم يحمل دعوة الله إلى العالمين، ويمثِّل الأنموذج الحيّ على طريق البشرية الطويل!!.

وموعدنا كلمات قادمات ـ إن شاء الله ـ نتبيَّن من خلالها بعض المواقف التي كانت ترجمان الالتزام الصادق لأمر الله ورسوله في هذا الباب، والتي تعلن ـ بأبعادها كافة ـ أن البنية السليمة التي أثمرتها حركة أولئك الميامين، أمانة في أعناق من يحملون عبء الريادة اليوم، كيما يكون في أدائها استمرار العطاء على طريق الهداية، وتزويد الأمة بما يزيح ركام التخلف، وينهض بها من عثار، ويمكِّن لها تحت راية التوحيد التي هي دائماً لخير البشرية جمعاء.

سورة المجادلة... وحقيقتان على طريق البناء

«٢»

ألقينا عصا التسيار من قريب، عند خواتم سورة المجادلة وقول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية العشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذه الآيات الكريمات وأمثالها ــ كما يبدو للناظر المتدبر ــ زاخرةٌ بما ينمي بواعث الحركة القادرة بإذن الله على تجاوز العقبات، والارتفاع فوق ما يكون من الصوارف الظاهرة حيناً، والمموَّهة المزخرفة حيناً آخر، فضلاً عما يجترحه الظالمون الصادُّون عن سبيل الله، وما يلحقونه من الأذى بدعاة الحق المستضعفين.

صحيح أن الغاية في سموها وعظمتها: صعبة المرتقى، ولكن المنهج الرباني حلَّ العقدة الكبرى، وذلل الصعب بمختلف الوسائل والأساليب الصحيحة، بدءاً من داخل النفس وإثارة القلب والعقل؛ فبناء المؤمن على العقيدة وصدق الالتزام بالمعايير المتوائمة معها، وصادق الإيمان أنه ــ وهو يوجه حركة الحياة ــ على الحق الذي لا تشوبه شائبة، وأن الذين يحادُّون الله ورسوله: هم المبطلون أعداء أنفسهم وأعداء الإنسان، موقناً حق اليقين أن النصر في خاتمة المطاف للحق وأهله. كل أولئك يضمن ــ بإذن الله ــ أن يكون المؤمن كفاء الغاية.. وصدق الوجهة في الطريق إليها،

وتحقيق كل ما فيه مرضاة الله ورسوله، لأن الله ورسوله والجهاد في سبيله أحبُّ إليه من كل شيء، ودون مرضاة الله ورسوله كل ما يكون من مبتغيات الحياة وزينتها وما تهفو النفوس وتميل إليه فيها.

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة يوم قال في دعائه بالطائف الذي رواه الطبراني برجال ثقات: «**إن لم يكن بك سخط عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي**».

وغير خاف أن قوله تعالى في سورة «المجادلة»: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ...**﴾ الآية قد سُبقت بحقيقتين أساسيتين ما بدَّ من أن يكون الفرد والجماعة في المجتمع المسلم، على حق اليقين منهما، وحسن التصور لموقع كل منهما من معركة البناء المتشعبة الميادين ـ في عمقها وشمولها ـ ومواجهة ما يكون من التحديات المستوطنة في نفوس مرضى القلوب، أو الطارئة على صعيد التطور في الأعراف والمصطلحات والقيم عند كثير من الناس!.

وهاتان الحقيقتان: حملت أولاهما الآية العشرون من سورة «المجادلة» المشار إليها آنفاً، وحملت الثانية الآية الحادية والعشرون منها.

فمن وضوح الرؤية في الإحاطة بالغاية المطلوب الفرارُ إلى الله لتحقيقها، مصحوباً ذلك بسلامة المنطلق إليها: أن يكون المؤمن على يقين لا يتزعزع ألبتة، بأن الكفار المعاندين الذين يحادُّون الله ورسوله ـ يعادون الله ورسوله ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ـ: هم في الأذلين، في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، المتسربلين في الذلة والصغار في الدنيا والآخرة.

وما ذلك إلا لأنهم رضوا لأنفسهم مختارين هذا المسلك الضالَّ المضلَّ؛ فهم في حدٍّ، والشرعُ الذي فيه خير العباد والبلاد في حدٍّ. ومن هنا جاءت المحادَّة لله ورسوله ـ والعياذ بالله ـ.

وهكذا تجد هؤلاء السفهاء في اعتقادهم وسلوكهم، مظاهرين للباطل، مجافين للحق شاقين له، هم في ناحية، والهدى والصلاح في ناحية مخالفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الله تعالى ـ وهو القوي العزيز الغالب على أمره ـ: كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يبدَّل ولا يمانع: أن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين المجاهدين، في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، أن لو سار هؤلاء العباد مع سنن الله، وما أمر به ونهى عنه سبحانه.

ولقد نطقت بذلك الكلمات الهاديات في عدد من المواطن، وفي مقدمتها الآية التي تلت ما نحن بصدده وهي قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

ذلكم هو القدر المحكم والأمر المبرم الذي يشحن همم المؤمنين، وينمي في أنفسهم حوافز العمل والجهاد، مهما اشتدت الأزمات وطال الطريق.

كما قال جل وعلا في سورة «غافر» المكية: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ولكم تسعف المؤمنَ هاتان الحقيقتان في مواجهة التحديات، ومطاردةِ كل ما من شأنه إدخال اليأس إلى النفوس، أو النزول على ما يكون ـ ظاهراً وباطناً ـ من تسويلات الشياطين شياطين الإنس والجن.

وبذلك يكون هذا المؤمن ـ وهو يعمل على تجاوز الواقع غير السليم، وإنشاء البديل الصالح ـ أقوى ـ بإذن الله ـ من التحديات، وعوامل التثبيط التي يفرح بها مرضى القلوب والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خواتم المجادلة.. وحقيقة ثالثة في البناء

«٣»

نحن على موعد مع وقفة أخرى نستأنف من خلالها صحبة المعلم القرآني في خواتم سورة مدنية هي سورة المجادلة، وقوله جل وعلا في الآية العشرين منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي الطريق إلى الآية الثالثة من هذه الآيات كان المعلم القرآني قد وقفنا في الآيتين العشرين والحادية والعشرين على حقيقتين أساسيتين: ما بدٌّ من اليقين بهما وحسن التصور لأبعادهما؛ تتعلق إحداهما بحكم الكتاب العزيز على الكافرين المعاندين المحادِّين لله ورسوله أنهم في الأذلين وذلك ما نطقت به الآية الأولى.

وتتعلق الأخرى ببيان أن الله هو القوي العزيز، وأنه قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدَرِه الذي لا يمانع ولا يتبدَّل: بأن النصرة له ولكتابه ورسوله وعباده المؤمنين الصادقين المجاهدين في الدنيا والآخرة وذلك ما نطقت به الآية الثانية.

وغني عن البيان أن القراءة المتأنية لتاريخ الصراع بين الحق والباطل في الماضي وما فيه، والحاضر وما فيه، وما حمل المنهج الرباني ــ في دعوته الخيِّرة إلى بناء الإنسان والحياة ــ من نصوص توجب إعداد القوة المستطاعة، علماً وعملاً، وأخذاً بالأسباب المتسقة مع القاعدة الإيمانية، وإلى البذل والتضحية عن طواعية ورضىً،

جهاداً في سبيل الله، يصحبه ما يجب من الخضوع في الحركة والتصرُّف للمعايير التي حدَّدها ذلك المنهج المبارك للموالاة والمعاداة والحب والبغض، وما ينبغي من التساوق مع سنن الله التي لا تتبدَّل... كل أولئك يسمو بالمؤمن إلى حقيقة ثالثة، هي أن المؤمنين الصادقين عاهدوا الله عليه، أولئك الذين همُّهم إعلاء كلمة الله، في أخذ للنفوس بتلكم المعايير المومى إليها، لما فيها من ضمان الثبات على الطريق دونما تلفُّت إلى هنا وهناك.. هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما حكم على الكفار المعاندين، وفيما أبرم ــ وهو الغالب على أمره ــ من أن النصر في خاتمة المطاف له ــ جلت قدرته ــ ولكتابه ورسوله وأولئك المؤمنين الذين يوفون بما أعطوا لله من عهد وموثق، وأيديهم مبسوطة بالعطاء طاعةً لله، وتجدهم ــ على كل الأحوال وقد ذاقوا حلاوة الجهاد في سبيل الله ــ وقافين عند مقتضيات الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وأخلاق المجاهدين.

وكم في هذا الوقوف عند هذه المقتضيات والعمل بها من قوة البرهان على الصدق، ومن ثمرات الخير والنماء لهم ولمجتمعهم وأمتهم، بل للإنسانية جمعاء!!

من هنا كان هذا الذي نلمح إليه: بعضاً مما يفسر النقلة في الآيات الكريمات بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ الآية إلى قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية.

وليس من الجنوح عن الفهم السليم في شيء: أن نشير إلى أن تلكم الكلمات الهاديات ونظائرها في كتاب الله العزيز مما تشرق به معالمه، وما جاء في سنة النبي ﷺ في هذه البابة: الجواب الشافي عن كثير من التساؤلات التي تدور في عالم الواقع، عما ينال الكفارُ من غلبة ونصر، وعما هو واقع بالمسلمين من الأذى..! فلله سنن لا تتخلَّف، وهذه الدار قائمة في شؤونها على الأسباب والمسببات كما هي سنَّته في هذا الكون في النصر والهزيمة والقوة والضعف، وما إلى ذلك...

فهو مع المؤمنين إن هم نصروه ــ بكل ما تحمله كلمة النصر هنا من المعاني ــ وكانوا على توافق مع سُننه في الكون والحياة، ولكنهم لا يظفرون بذلك إن هم جانبوا طريق النصر، وأخذوا وجهة عكسية من سنن الله في الأسباب والمسببات وما إلى ذلك، وأعداؤنا ــ وهم أعداؤه ــ لا تتخلف سنن الله في تعاملها معهم إن هم تساوقوا معها.

وهذا يذكّرنا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]. إن المسلمين اليوم يجنون مرارة ما زرعوا من التغيير النفسي عن الحق حتى غيَّر الله ما بهم من نعمة الغلبة والتمكين. والمطلوب اليوم يقظة حقيقية تعيدهم إلى استثارة النفوس بالإيمان الصادق واليقين الذي لا يتزعزع، والسير مع سنن الله في الكون، حتى تعود إليهم النعم التي غيرها الله بهم، بسبب تغييرهم ما بأنفسهم وهو المحمود على كل حال.

البناء والآية الأخيرة من سورة المجادلة..
العقيدة والموالاة

« ٤ »

هذه عودة إلى الآية الأخيرة من سورة المجادلة؛ ففي سبب نزولها ما يعين على مزيد من التَّبيُّن لتلك الحقائق التي طرحها المعلم القرآني هناك، وهي بعض، من العطاء في خواتم تلك السورة المدنية المباركة. والآية الكريمة هي قول الله جل ذكره: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد سُبِقت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

فالمؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله، فكان هو في حدٍّ والله ورسوله في حدٍّ، يلتزم طريق الضلال ويحارب الحق وأهله.. المؤمنون بالله واليوم الآخر لا يوادون من هم في فكرهم وسلوكهم على هذه الشاكلة ولو كانوا آباءَهم أو أخوانهم أو عشيرتهم.

فمعيار الحق عند المؤمن أن يكون أبداً في عمله وسلوكه وتعامله مع الآخرين: منضبطاً بضوابط الموالاة والمعاداة التي وضعها الشارع الحكيم؛ فالموالاة لله ولرسوله والمؤمنين... وحبُّ الله ورسوله والجهادُ في سبيله مقدَّم على كل حب أو ميل.

وبناءً على ذلك: فالمودة الصادقة إنما تكون لإخوته المؤمنين ولو بعُدوا في النسب، ومن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تكون هذه المودَّة للمحادِّين لله ورسوله، ولو كانوا من أقرب الناس نسباً كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة.

وهذا ما يذكرنا بقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]. حيث النهي القاطع عن اتخاذ أولئك المحادِّين أولياء من دون الله، وقوله في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٤٢]. حيث الوعيدُ الشديد على تقديم حب ما ذكر على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله، وأن الفسق ــ الخروج عن ذلك ــ ضلال مبين.

والحق أن الآية التي نسعد باصطحابها من سورة المجادلة تقدم الصورة العملية الناطقة بالامتثال العملي لما جاءت به تلك النصوص؛ فقد روى الحافظ البيهقي وغيره أن قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾ الآية قد نزل في أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، حيث قتل أباه المستميتَ في قتال الرسول ﷺ وأصحابه يوم بدر. وهو موقف يبدو فيه الانصياع التام لمعايير الموالاة والمعاداة، كما أراد الله ورسوله، ولا بدع أن يكون هذا الصحابي ــ بشهادة النبي ﷺ ــ أمين الأمة المحمدية. ومن أجل ذلك قال عمر رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة عليهم الرضوان (ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته).

ولا بد من متابعة اصطحاب الآية التي نسعد باصطحابها هنا فيما يأتي من القول إن شاء الله، كيما نُلمَّ أكثر وأكثر بأبعادها على طريق البناء، وما يجب على الرواد في حمل الأمانة والحرص على المنهجية، في بناء الفرد والجماعة، وعملِ كل

ما من شأنه تأصيل النسبة والتحقق بها إلى أولئك البناة الذين حطموا قيود الجاهلية، وانتصروا على المعوقات في أنفسهم وفيما يعترض سبيلهم وهم يرفعون قواعد الحضارة المثلى ويقدمون للناس ما يسعدهم في الدنيا ويوم تُزلزَل الأرضُ زِلزالها وتُخرج الأرض أثقالها.

خواتم سورة المجادلة وأولويات في بناء الإنسان المسلم..

« ٥ »

مما وقفنا عليه المعلم القرآني في خواتم سورة المجادلة، بدءاً من الآية العشرين فيها: أن الجيل الذي تعهده رسول الله ﷺ بالبناء ونمَّى فيه طاقات الخير وحوافز العمل الإيجابي المثمر: كان في مقدمة ما تميَّز به: صدقُ الوجهة في الموالاة والمعاداة والحب والبغض؛ فهو على كل أحواله، لا يتولى إلا الله ورسوله والمؤمنين، سواء أكان ذلك على صعيد التصور أم كان على صعيد الممارسة والتطبيق.

وتراه لا يوادُّ من حادَّ الله ورسوله، مهما بلغوا من قرابة النسب، والله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب إليه من أقرب ما يُحَبُّ وأثمن ما يبتغى؛ ذلك لأن همَّه أبداً وشغله الشاغل: أن يكون على التزام تام بالمعايير التي حدّدتها للموالاة والمحادة معالم الكتاب العزيز وبينتها بالقول والفعل والإقرار سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا لم يكن عجباً من العجب: أن ينجز هذا الجيل في حقبة زمنيَّة يسيرة في ميادين العلم والعمل وآفاقهما، وفي التأسيس الحضاري: ما لا ينجز في أضعاف أضعافها.

والآيات المشار إليها في سورة المجادلة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وآصرة ما بين هذه الآيات الثلاث وبين المقولة التي نلمح إليها في شأن الجيل الذي حُمِّل أمانة البناء، فحملها ـ مستعيناً بالله ـ على خير وجه: ما حملت الكلمات الهاديات من حقيقة أن الذين يحادُّون الله ورسوله هم الأذلون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ومن حقيقة أن الله قد كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يمانع ولا يبدَّل: ما نطق به قوله جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

ثم ما دلت عليه الآية الأخيرة التي ختمت بها السورة من أن أولئك المؤمنين الذين وفوا بعهد الله، وأخضعوا سلوكهم في الظاهر والباطن، وممارستهم لشؤون الحياة في السلم والحرب: إلى تلكم المعايير الربانية في الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض: إن أولئك المؤمنين الذين سلمت لهم تلك البنية المتكاملة في الاعتقاد والتصور والتطبيق: هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما دلت عليه الآيتان الكريمتان.

والآية التي نعنيها هي قول الله جل ذكره: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية.

وقد نزلت هذه الآية ـ كما دلت بعض الروايات التي أشير إليها فيما سبق ـ في شأن أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ـ وقد قتل أباه الذي أمعن في الحرص على إنزال القتل بالمسلمين يوم بدر.

وإلى أن نلتقي مع كلمات أخر نستودعها مزيداً من الاستنارة بعطاء المعلم القرآني: لا أجد بداً من الإشارة الجازمة إلى ثقل الأمانة في تبصير الجيل المعدِّ للبناء الذي يعيد للمجتمع المسلم وجودَه الحقيقي بالإذعان للحنيفية السمحة، أحكامها وأخلاقها وآدابها، والتي ينتمي إليها صنيعُ أبي عبيدة وأضرابه رحمهم الله ورضي عنهم، أولئك الذين وضعهم الله موضع الريادة الأمينة، والتربية بالقدوة لما يليهم من أجيال أمة الشهادة على الناس.

والحق أن هذا الجيل الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين، فلم يبخل بعطاء، ولا تقاعس عن مكرمة، ولا أمسك عن بذل، وكان ـ بعون الله ـ أقوى من الرغبات والمخاوف: يكشف سلوكه الفاذُّ عما كان للمنهج القرآني الذي حوله ندندن من أثر فعَّال في صياغة التاريخ، وبناء حضارة الإنسان التي لا تشكو عوجاً، ولا يعرف التناقض إليها سبيلاً.

والتبصر بذلك على الوجه الذي ينبغي: حجر الزاوية في استئناف مسيرة الخير، وإحداث النقلة النوعية التي يتوخاها المصلحون، وفي إنشاء الحوافز الإيمانية التي أراد لها المنهج الرباني أن ترعى مسيرة المؤمن كيما يكون على الصراط السوي في دينه ودنياه وآخرته، وكم لذلك من عظيم الآثار في الأسرة والمجتمع والأمة، والله يتولى الصالحين.

أولويات في البناء.. ووضوح الرؤية
سورة المجادلة والجيل القدوة

« ٦ »

الجيل المرشح ـ في ظل يقظة العالم الإسلامي ـ لحمل الأمانة في تجديد البنية عند الفرد وبناء مجتمع تقوده ـ على وجه الحقيقة ـ الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث ترد الأمور إلى محاضنها في شعوب الإسلام، ويزينه النماء المطرد في ميادين الحياة كافة، سواء كان اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية وغيرها، ضمن ظروف تخضع للتحديد أحياناً، وتستعصي عليه أحياناً أخرى... هذا الجيل ما بدٌّ من تبصيره بحقيقة ما بني عليه الجيل الرائد الذي شهد تنزل الوحي، وكان طوع الكلمة الهادية يلقيها رسول الله ﷺ ـ وهو المبلغ عن الله ما أراد ولا ينطق عن الهوى ـ: فقدَّم للبشرية كلها ـ وهو الجيل القدوة في جزيرة العرب ـ ما قدَّم للبشرية من منجزات لا ينكرها منصف متبصِّر مدرك لما كانت عليه الحال في الجزيرة العربية وغيرها في أرجاء المعمورة، وما آلت إليه الأمور بعد الإسلام الذي حمله عن رسول الله ﷺ وبلغه الناس ذلك الجيل الفريد!!.

كان لا بد من الإشارة إلى هذه الحقيقة لأنها ـ كما أسلفت فيما سبق ـ حجر الزاوية في منهج يراد له أن يحقق سلامة التصور للغاية المنشودة ـ كما حددتها الرسالة الخاتمة ـ والسبيل الموصلة إليها وفق سنن الله في كونه وخليقته، وأن ينشىء الحوافز إلى العمل والإنجاز من داخل النفس المؤمنة التي استنارت بحقائق الإسلام، وهي حوافز تصنع ـ بإذن الله ـ الكثير الكثير، الأمر الذي يؤذن باختصار

المراحل إلى ما يجب أن يكون؛ لما أنها وليدة الإيمان الصادق، والانعكاس الطبيعي لما يأخذ به المسلم ــ ذكراً كان أو أنثى ــ نفسه من ضوابط ومعايير أشرقت بها نصوص الكتاب والسنة على صورة لا يعتريها التباس أو تخمين!.

نقول ذلك، لأن الأنموذج العملي الذي سداه ولحمته فقه الدعوة، والاستعلاء بالذوق الإيماني على المعوقات: يبني بالقدوة، ويسعف ــ تربوياً وتزكية ــ بإحداث النقلة التي لا بد منها، من المعرفة والتصور، إلى العمل والتطبيق، وذلكم دليل الثقافة الحقيقية التي تجمع بين المعرفة والسلوك عند الفرد والجماعة.

من أجل ذلك ــ وغيره كثير ــ أُراني وهذه المقولة المباركة ــ التي هي من الحق وإليه ــ تقودني مرة أخرى إلى اصطحاب المعلم القرآني في خواتم سورة المجادلة، وقول الله تبارك وتعالى في الآية الأخيرة منها: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبقت الإشارة إليه من ارتباط سبب النزول ــ كما نصت بعض الروايات ــ بصنيع أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه يوم بدر.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن» عن عبد الله بن شوذب قال: جعل والد أبي عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر ــ يعني من طعن المسلمين ــ قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا....﴾ الآية.

والحق أن الأمر في هذا المسلك وأمثاله، في تقديم حق العقيدة على العلاقة القريبة المضادِّ أصحابُها ولو كانوا من أقرب الناس نسباً أو ما هو على شاكلته: يتعلق ــ بعد الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب ــ بوضوح الرؤية عند المسلم ــ ذكراً كان أو أنثى ــ الذي يتحرَّك في ميادين البناء على وجوهها المتعددة المتنوعة

سلماً وحرباً، ويعمل على أن يوجه حركة الحياة وجهة لا تنأى ــ وهي تتعامل مع الواقع أو تنشئه ــ عن شريعة الإسلام التي تغمرها بالخير، وتحصنها في مواجهة الأذى والتحديات..

فهذا المسلم، بوضوح الرؤية المشار إليه: يكون مدركاً بوعي ومنهجية سليمة لغايته التي يتطلع إليها، وما ينبغي لتحقيق ذلك من فهم وبذل ورعاية؛ لذا تراه يتخذ ما يتخذ من المواقف وهو الواثق المطمئن الثابت الخطا، المدرك لطبيعة الحركة تحت الراية التي يسالم أو يحارب من أجل ما هي رمز له وتدل عليه، ويحب أو يبغض وهو على اليقين من أن تلك الراية هي التي نسجت وجودَها الكلمةُ الطيبة ذات العطاء الذي لا يُحَدُّ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) الكلمةُ التي حُددت المعايير لذلك كله على هديها وفي نورها.

ومن هنا ذكر عدد من المفسرين يرحمهم الله أن المعنيَّ بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾ أمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح في موقفه مع أبيه يوم الفرقان؛ فهو لم يوادَّه وإن كان أباه على حساب الإيمان بالله واليوم الآخر، وكان الباعث على الجهاد تحت الراية المحمدية أقوى من أي عاطفة أو رغبة من أمور الدنيا، وبقوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أبو بكر الصديق، إذ همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، إذ قال عبد الرحمن لأبيه: منعني من قتلك عاطفة الأبوة، فقال أبو بكر: لو تمكنت منك لما نجوت مني.

وبقوله جل ذكره: ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ.

أما قوله سبحانه: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فالمعنيُّ عمر؛ قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا عتبة وشيبة، والوليد بن عتبة في تلك الواقعة المباركة يومذاك، كما ذكر الحافظ ابن كثير.

وهكذا تكون الآية واضحة الدلالة في تزكية ما صنع أولئك الصحابة عليهم الرضوان وتقعيد هذه القاعدة العظيمة التي حدّدت ضوابط العلاقة بين المؤمنين والكفار في حالة الحرب والمواجهة.

وهذا لا يتنافى مع وضع الأمور مواضعها في حالة السلم أخلاقاً وحسن تعامل، ومصاحبة بالمعروف مع شدة الحرص على أن يكون هؤلاء من المؤمنين.

ومهما يكن من أمر: فإن العمل على أن تتسم الرؤية عند من يرشحون لحمل العبء بفهم ووعي وأمانة، وقدرة على توجيه الطاقات الفاعلة، وجهة البناء والنماء: بالوضوح المرموق: مطلب أصيل تدعو الضرورة إلى تحقيقه، كيما يكون أبناء المجتمع المسلم على الجادة في الاندفاع إلى العمل الإيجابي المثمر، يتجاوزون ما يلقى على طريقهم من الفكر الوافد المضاد، والصورةِ المشوهة المفتراة على الإسلام في موقفه من بناء الإنسان والحياة، وعلاقةِ الإنسان بالكون والحياة التي جعلها الإسلام علاقة تثمر الحفاظ على إنسانية الإنسان في ظل حضارة تقوم على الأسس السليمة التي تشرق بها الرسالة الخاتمة الموحى بها إلى صفوة الله من خلقه وخيرته من رسله معلم الناس الخير محمد بن عبد الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المجاهدين الصابرين الذين كانوا على خير ما يكون من الوضوح في الرؤية، وما ينبغي لتحقيق الغايات الكبار من إعداد صحيح للقوة في شتى منابعها وميادينها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

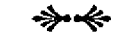

مع سورة الأنعام التحضير المبكر للبناء والأولويات

« ١ »

أشرنا غير مرة إلى أن تزويد الجيل المعدّ للبناء، بالقدر الكافي من المعرفة بالإسلام ومنهجه في بناء الإنسان والحياة، مع مراعاة السلوك والعمل على تطويعه لمقتضيات العقيدة: كل أولئك من الأوليات التي يجب أن تأخذ حجمها الحقيقي في الثقافة التي تنشىء التصور وتحوّله إلى سلوك عند الممارسة والتطبيق.

وبذلك تكون العاطفة الإسلامية عند الشباب وقوداً متجدداً لهذا التطوير الثقافي والتربوي.

ولقد يكون من المفيد حقاً أن نُعين شبابنا وفتياتنا ــ وهم يتطلعون إلى بناء مجتمع يزينه التكامل في بناه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها ولا يشكون من عوامل التمزق والضعف، كالذي يصيب المجتمعات المنقطعة عن هداية الله ــ .. لقد يكون من المفيد حقاً أن نحسن خطابهم ونُعينهم على إدراك أن الرسالة الخاتمة ــ وهي رسالة بناء يشمل ميادين الحياة بأكملها، وإنماء لفاعلية الخير والعطاء في المجتمع ــ: قد كانت نظرتها مبكرة إلى الكشف عن مواطن الضعف وأسبابه في المجتمع الجاهلي ــ بشكل عام ــ وفي الجزيرة العربية بخاصة، وذلك، ببيان شاف مؤيد بالدليل الواقعي. وكان ذلك بمثابة تمهيد لبناء مجتمع تحكمه شريعة الله، وتزينه العافية من تلك الأمراض المهلكة، كعبادة الأوثان والتقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ناهيك عن العادات والأعراف الجاهلية الرعناء التي كانت تضيع معها في كثير من الأحيان، جملة من الأخلاق الكريمة التي كانت كالجزيرة المضيئة في بحر الظلمات، وتُهدر

بسببها كثير من طاقات الفرد والجماعة، أو توضع في غير موضعها على حال تكون في خدمة الجاهلية ونظراتها التي تتنافى مع الحق، بل ومع إنسانية الإنسان في كثير من الأحيان.

وشواهد ذلك كثيرة وفيرة فيما نزل من القرآن الكريم، خصوصاً في العهد المكي. ومن ذلك ما نقع عليه في سورة الأنعام المكية ــ على سبيل المثال ــ وهي من السبع الطُّوَال في كتاب الله من آيات تشعر بخطين متلازمين.

أولهما ــ ذلك الخط المتعلق ببناء الإنسان الذي ينأى عن حمأة التخلف الجاهلي بفوضاه وخضوعه للهوى والشيطان.

ثانيهما ــ الخط المتعلق بالتحضير لبناء مجتمع يُشرق في جنباته ــ بإطلاق ــ نور شريعة الله يوم يأذن الله بذلك، ويسلم المجتمعُ قياده لدعوة الإسلام التي يحمل لواءها النبي الأمين محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد حصل هذا بعد الهجرة ــ والحمد لله ــ حيث أنشىء المجتمع الأنموذج الجديد، بواقع أنموذج جديد على طريق البشرية في كل زمان ومكان، وحسبك أنهما مجتمعُ وواقعُ المهاجرين والأنصار. والخصائصُ الفريدة المميزة لهذا الأمر الجلل: لا تخفى على ذي بصيرة، وليس هذا موضع بسطها، وهي متوافرة في مظانها لمن أراد.

وسبحان من اختار للرسالة الخاتمة ــ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ــ سيد العالمين محمداً صلوات الله وسلامه عليه، واختار لحملها عنه إلى الناس: أولئك الجنود الأمناء وهم أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ففتح بهم مغاليق الحياة، وحطَّم الأوثان من داخل النفوس ومن خارجها.

وأكرم بجندٍ قائدهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، قاموا بمهمة التحويل من الجاهلية إلى الإسلام، ويا لها من مهمة مذكورة مشكورة أضاءت لبني الإنسان طريقهم إلى يوم الدين، ولكن كثيراً من الناس لا يفقهون. أجل لا يفقهون، لأنهم يولُّون ظهورهم للدليل القاطع والبرهان الساطع، وليس أقلَّ ذلك ما كان لتلك

النقلة من الجاهلية الجهلاء إلى الإسلام من آثار إيجابية بناءة عبر تاريخ الحضارات الطويل؛ لما أنها مع النقفة الكاملة لما كان من نثارت خير في الجاهلية أنشأت ــ فيما أنشأت ــ حضارة الإسلام المثلى التي شهدت وتشهد بأحقية هذا الدين الذي ارتضاه لعباده رب العالمين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي عود على بدء، بعد هذه اللمحة التي لم يكن بد من الاستطراد إليها: ها نحن أولاء نقرأ في تلك السورة المباركة سورة الأنعام، بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة قول الله جل ذكره في شأن سمات المجتمع الجاهلي التي يكشف عنها ما كان يفعله الجاهليون: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

هكذا ترى أن الغُربة المؤقتة التي كانت تعاني منها دعوة الإسلام في مكة في العهد المكي، ومحاولة الفتنة عن الدين، والابتلاء الذي كان يطارد الفئة القليلة المؤمنة، ويُحكم عليها الحصار بأساليب غاية في السقوط: تجاوزت إلى إيذاء الرسول الكريم نفسه فداه أبي وأمي عليه الصلاة والسلام..

كل أولئك لم يكن بكل ما فيه ــ كما شاء الله تعالى وهو الحكيم الخبير ــ حائلاً دون الكشف بأسلوب غاية في الوضوح والإحاطة عن مساوىء المجتمع الجاهلي، وعناصر الضعف والتخلخل فيه، والأسباب المباشرة، والأسباب غير المباشرة لذلك؛ الأمر الذي يشعر بأحقية دين الإسلام أولاً، وبصدق محمد ﷺ في أنه رسول من عند الله، يُوحَى إليه بهذا القرآن بلسان عربي مبين.

كما يشعر ثانياً بحكمة الحكيم سبحانه بالتحضير والإعداد للمجتمع المعافى من تلك الأوضار التي تشير إليها الآيات، وبهذه المعافاة يكون المجتمعَ الأمثل المنتج على دروب الخير، الذي يأتي نتيجة طبيعية لما تحدثه عقيدة التوحيد بأبعادها الشاملة ـ في النفوس ـ من تحويل على صعيدي الفرد والجماعة، حيث يصبح الفرد لبنة صالحة فاعلة في مجتمع إيماني لا تعوزه مقومات السلامة والإحكام، قادرٍ على أن يبدأ مسيرة حضارة جديدة مبرأة من تلك العيوب التي تئن منها الحضارات المادية من مختلف الأزمنة والأمكنة. وواقعنا اليوم مع حضارة القوة الطاغية.

البنية الثقافية والسلوك وسورة الأنعام

« ٢ »

سبقت الإشارة من قريب إلى ما يجب أن يعان عليه شبابنا وفتياتنا على صعيدي الثقافة وتطويع السلوك للمعرفة: من إدراك واعٍ وشامل منهج الإسلام في بناء الإنسان والحياة.. وأن التحضير لبناء مجتمع متماسك الأركان تقوم قواعده على محور إيمان قوامه الإنسان المؤمن المتفتح العقل المنوّر القلب، بدءاً من التنديد بمساوىء المجتمع الجاهلي: قد وقع في العهد المكي مصاحباً لبناء الإنسان على عقيدة التوحيد والتسامي عن كل ما هو من أوضار الجاهلية بسبب؛ الأمر الذي يجعل منه تلك الطاقة القادرة ـ بإذن الله ـ على إنشاء البنية الحضارية السليمة.

وعلى هدي هذه المقولة سعدنا بواحد من الشواهد القرآنية في سورة مكية هي سورة الأنعام. ذلكم قول الله تبارك وتعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وأنت واجد أن هذه الآيات تشير إلى عدد من المساوىء التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي فيما يتصل بالزرع والأنعام وألوان من المطاعم المتعلقة بها، والتفريق بين الرجل والمرأة ببعضها، بالإضافة إلى تلك الظاهرة القبيحة أشد القبح التي كانت عند عدد من القبائل وهي قتل الأولاد من الإملاق أو خشية الإملاق على زعم من يفعل ذلك، ناهيك عن وأد البنات خشية العار إذا كبرن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨]. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩]. كل هذا في تحليل وتحريم لم يأذن به الله، وهو محض افتراء عليه سبحانه.

والحق أن ما ذُكر في هذه الآيات من أمور الجاهلية وأعرافها: ذو دلالة واضحة على التقليد الأعمى دون تبصُّر، وعلى انحسار العقل عن أن يكون له دخل في الحكم أو تحديد المواقف..

ودلالة ذلك ــ كما يلاحظ ــ على أن كابوس الوثنية والخرافة قد أرهق الفرد والجماعة وعطَّل الكثير من الطاقات، وأسلم المجتمع إلى التمزق والضياع: واضحة كل الوضوح.

وإلى أن نلتقي على نظرات في الآيات الكريمات وعطاء المعلم القرآني فيها: لعل من الخير أن ننظر إلى ما ختمت به كل آية منها لأن الخواتيم مرتبطة أيما ارتباط بالمضامين!.

ها نحن أولاء نرى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ونعود إلى الآية الأخيرة لنرى الحكم عليهم بالسفه والافتراء والبعد عن طريق الهداية ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وأنت ترى أن ذلك يحمل ما يحمل من توجيه الفئة المؤمنة إلى شيء من سمات المجتمع المسلم كيف يجب أن يكون..

والتذكير بذلك منذ العهد المكي: درس للأمة في كل عصر وفي كل جيل: أن تكون على المورد الأصيل أخذاً قوياً بالمنهج الرباني في بناء الفرد والجماعة، وإنشاء المجتمع الأمثل المبرأ من الأمراض التي تشل حركته على طريق العطاء المجدي، وتعوقه عن النماء المثمر الخيِّر، والحمد لله على نعمة الإسلام!!.

سورة الأنعام وإحكام البناء..
بين يدي المجتمع الأمثل صاحب الرسالة
«٣»

في عود على بدء: نحن على موعد مع بعض من آي سورة الأنعام المكية، نسعد باصطحابها، لنضع أيدينا على تلكم المآخذ التي ندد بها القرآن الكريم، والتي هي من صنع الجاهلية الجهلاء والغواية العمياء؛ تحليلاً وتحريماً على ساحة الأنعام والحرث، لم يأذن بهما الله سبحانه، مضافاً إلى ذلك موقف شائك من المرأة عموماً، ومن الأزواج في حكم بعض الأطعمة بشكل خاص..

ناهيك عن ظاهرة قتل الأولاد من قبل آبائهم سفهاً بغير علم ـ والعياذ بالله ـ علماً بأن تعبير ـ بغير علم ـ لا يعني أن هنالك قتلاً يكون سفهاً بِعلم، فليس للعبارة مفهوم مخالف، ولكنه تقرير واقع؛ فهم يقتلون الأولاد سفهاً بجهل وجاهلية.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿...لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ فليس المراد أن ما لم يكن أضعافاً مضاعفة فهو حلال، ولكن المراد تصوير الواقع وهو أنهم كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة في الجاهلية فنُهي المسلمون نهياً قاطعاً عن ذلك.

وقد تأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾.

وبعد: فالتنديد المبكر بهذه المساوىء التي كانت عنوان البعد عن هداية الله، والتي أضعفت كيان الفرد والجماعة، وقعدت بالمجتمع عن أن يكون مجتمع خيرية ومساواة وعطاء على الوجه الذي ينبغي..

أجل: التنديد بهذه المساوىء تحت سمع الدنيا وبصرها بآيات قرآنية تنزلت بلسان عربي مبين، بدءاً من العهد المكي، والشدةُ الشادة تحيط بالفئة القليلة المؤمنة، حيث الفتنةُ عن الدين، وإيقاع صنوف الأذى في النفس والمال والولد وموطن الولادة والنشأة والعيش: يشعر ـ كما أسلفنا ـ بالتمهيد لبناء المجتمع المسلم المعافى من تلكم الأمراض والترهات، الأمر الذي يشي بأن هذا التمهيد ـ الذي هو بمثابة التحضير لإنشاء المجتمع المنشود الذي يليق بإنسانية الإنسان وطاقاته وخلافته في الأرض ـ: يبلغ من الأهمية ما يجعله مصاحباً للبناء المراد للإنسان، على العقيدة التي هي من الفطرة وإليها والذي كان المحور في آيات الكتاب الكريم يومذاك، والشغلَ الشاغل لرسول الله ﷺ وصحبه المؤمنين الأخيار؛ إذ التخلية قبل التحلية كما يقول علماء السلوك.

والآيات الكريمات التي هي مدار هذه الإشارة العجلى هي قول الله تباركت أسماؤه في السورة المذكورة بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ الآيات.

وغير خاف أن الآية تحمل الذم والتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، فجعلوا لله شركاء وأنداداً من خلقه أو مما صنعته أيديهم، وهو سبحانه خالق كل شيء، وهو الذي يجب أن يدعى ويستعان، وينصاع العباد لأحكامه ـ جل شأنه ـ فيهم.

وعمل هؤلاء المشركين الذي قرّرت وجوده الآية الكريمة فيهم، وندّدت به شديد التنديد: أثر من آثار ذلك الضلال المبين حيث يشرعون ما لم يأذن به الله، فيحلّلون ويحرمون حسب أهوائهم وتقليدهم الأعمى للآباء والأجداد دونما تعقل أو تبصُّر!!.

وما من ريب في أن هذا الصنيع الذي كان يحظى برضى المجتمع عنه، يوحي بما كانوا عليه من التشتت والضياع في التصور والعمل المتلائم مع هذا التصور.

وانعكاس ذلك على بنية هذا المجتمع التي تتمثل بالتفريق بين فئة من الناس وفئة، وسير التحليل والتحريم على مركب من المصطلحات الفارغة من الحق، ولونٍ من ألوان الاستهانة بالمرأة والأزواج.. إلى غير ذلك.. هذا الانعكاس لا يخفى على ذي النظرة المتكاملة للأمور!!.

إن هذا الصنيع ظلمة من ظلمات تلك الحقبة الجاهلية، وما تنزل به القرآن تعريةً للباطل وبياناً للحق وكيف يكون الطريق إليه: هو النور الذي أزاح الظلمات والحمد لله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ جعلوا لله مما خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام نصيباً ـ جزءاً وقسماً ـ؛ فشيءٌ لله بزعمهم، وشيء لشركائهم من الأوثان.

وقد جاءت الآية على هذا الزعم الباطل المبني على تصور في غاية الفساد، فقال جل شأنه: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ولننظر ماذا سيكون من بعد!! إن ما يجعلونه من القَسم لشركائهم لا يصل إلى الله، أما ما كان لله: فهو يصل إلى شركائهم، وأنت لا تدري أهي حقيقة بزعمهم أم فرضية؟!!.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أيُّ استخفاف بالعقول هذا، وأي سخرية من الإنسان هذه؟ لذا ختمت الآية بالتنبيه على سوء حكمهم هذا، فقال سبحانه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إن ظاهرة العبث هذه، والتلاعبَ بأمر لصيق بالقضية اليقينية الكبرى وهي قضية الاعتقاد بوجود الله تباركت أسماؤه على صعيد الممارسة، وإلقاءَ الأحكام المفتراة جزافاً من هنا وهناك دونما وازع أو رادع: يقصي الإنسان عن ممارسة الحياة بحضور فكري وإرادي على الوجه الذي ينبغي، ويضعه الموضع غير الملائم له، بوصفه إنساناً له عقله وفطرته وأهليته وتطلعاته، ناهيك عن قلبه ونفسه ومشاعره.

وليس هذا فحسب: ولكنه أيضاً يعرض المجتمع لألوان من عدم الاستقرار، والضياع!!.

والكشفُ عما يحمل الصنيع الجاهلي من الأذى بنوعيه الظاهر والمبطَّن، وأن ذلك يرتدُّ إلى سوء حكم الجاهلية، وإظهارُ عواره في تلك الحقبة من عمر الدعوة المبكر: إيذاناً ــ كما أسلفت غير مرة ــ بأن على الفئة المؤمنة ــ على اختلاف الأزمنة والأمكنة ــ أن تحرص على إعداد العدة لبناء المجتمع الذي لا ترهق بُناه هذه الشوائبُ وأمثالها مما تطلقه الجاهليات الحديثة؛ لأن العقيدة التي شرفهم الله بحملها، ما بدَّ من أن تكون منطلق التحويل إلى المجتمع الفاضل القوي في لبناته وبُناه، المجتمع الذي يعتدُّ أبداً بما للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من حقوق، ويلبي حاجات الفرد والجماعة بمنأىً عن كل ما يسيء إلى الاستقامة والتعاون على البر والتقوى والخلق الكريم.

وعطاء المعالم القرآنية ــ ومنها هذا الأنموذج من بسط ألوان الداء، ومقومات الدواء ــ: أمانة في أعناق ذوي الكلمة المسموعة من المسلمين، والأمة على وجه العموم: أن يكون هذا العطاء موضع الاهتمام البالغ والانتفاع في ظروف حديثة تذكرنا بقول القائل:

«ما أشبه الليلة بالبارحة»

أجل: ومطلوب أداء هذه الأمانة وإن اختلفت المظاهر حسب القشرة الخارجية!! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

سورة الأنعام أوضار الجاهلية.. والتغيير

« ٤ »

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول ــ ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام: على بعض من المساوىء التي جاءت ــ كما دلَّ البيان القرآني المعجز ــ نتيجة لصنيع أهل الباطل من اتخاذهم شركاء لله عز وجل، حيث كانوا على درجة من الاستهتار حملتهم على أن يجعلوا لله مما خلق وبرأ من الزروع والثمار والأنعام نصيباً، يقابله نصيب لشركائهم من الأوثان، ورتبوا نتائج غايةً في التفاهة على هذا التقسيم، هكذا قالوا ــ كما أخبر القرآن ــ: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا ومن هم شركاؤهم الذين يظفرون بهذا النصيب؟ إنهم الأوثان التي صنعوها بأيديهم؛ فهي لا تنطق ولا تسمع ولا تعقل، وراحوا يعبدونها من دون الله.. ويبلغ بهم العبث والبعد عن تحكيم العقل السليم ــ وهذا من أوضح سمات الجاهلية ــ أن يقرروا كما زين لهم الهوى أمراً غاية في الغرابة مدعاة للعجب وهو من النتائج التي ترتبت على التقسيم المزري: أنه ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.

وحكم الله على صنيعهم هذا في الفكر والعمل ــ وهو خير الحاكمين ــ بأنه سوء، فقال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إنها للظاهرة التي تدل على إهمال العقل والسير وراء الخرافة، وذلك من عناصر الهدم للمجتمع وتعطيل طاقات الفرد والجماعة.

والآية الكريمة التي سعدنا بصحبتها في هذه الرحلة المباركة ــ كما سبق ــ هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الدرس العظيم فيما يلزم للحكم في أمر من الأمور من التعقل والتدبر والاحتكام إلى الحق بعيداً عن الوقوع في شرك الهوى والغفلة؟!.

ولنستمع إلى ما قاله حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية كما نقل ذلك عنه علي بن أبي طلحة والعوفي: يقول: (إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا منه لله جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيءٍ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله: جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير ولم يردُّوه إلى ما جعلوه لله.

وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله، فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن. وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الآية).

ومعلوم أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الأنعام لكل منها صفات خاصة تميزت بها وسموها بهذا الاسم من أجلها.

والذي قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد. رواه الطبري في «جامع البيان» وأورده ابن كثير في تفسيره.

وأثر الشرك فيما يصنعون، حيث العدوان على العقل والتقليدُ الأعمى، ناهيك عن التناقض مع دعوى الإيمان بالله وأنه الخالق البارىء.. هذا الأثر، تطالعنا المصادر أنه جاء أيضاً في صورة أخرى وراء الذي رأيناه آنفاً، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية التي نحن بصددها: (كل شيء يجعلونه من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله عليه، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾رواه الطبري وغيره.

أجل: ألا ساء ما يقسمون ويتأولون نتيجة شركهم وضلالهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولاً القسم لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا ـ فيما زعموا ـ القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل وعلا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[النجم: ٢١-٢٢].

لقد جاء هذا التنديد بعوامل الهدم في المجتمع ومظاهر الاستهتار بالإنسان: ليكون مع التقويم، عنواناً حضارياً أمثل، وسيظل عنوان الحرص في الرسالة الخاتمة على بناء الإنسان ومن ورائه المجتمع، بناءً يسلم إلى القدرة على العطاء، وأن يكون الإنسان بحق ذلك المخلوق الذي كرمه الله وسخَّر له من كونه ما سخَّر، يعيش في مجتمع تقوم قواعده على الخير والهدى، في تكامل يتسع لميادين الحياة كافة دون وكس ولا شطط والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

سورة الأنعام.. وعقابيل الجاهلية
البناء على طريق التغيير إلى الأقوم

« ٥ »

مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام كانت لنا رحلة قصيرة وقفنا المعلم القرآني من خلالها على لون من ألوان الضعف في المجتمع الجاهلي تصوراً وسلوكاً، يبرزه ما كان من عمل المشركين في أنهم جعلوا لله تعالى ــ وهو الخالق المنعم الذي له ملك السماوات والأرض والكل تحت مشيئته وقدرته ــ جعلوا له مما خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً؛ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، ويعنون بالشركاء الأوثان التي يعبدون؛ فما كان لتلك الأوثان: فهو مصون محفوظ، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصَّمد: ردّوه إليها وما كان لله فالحيلة قائمة لردِّه إلى الوثن، حتى لو اختلط منه شيء بالذي جعلوه ــ كما شاء لهم هواهم ــ للوثن: تركوه له ولم يردُّوه إلى ما جعلوه لله.

إنه لضلال في القَسْم؛ لأن الله ربُّ كل شيء ومليكه، والخلق كلهم تحت تصرفه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وضلال فيما زعموا من القسمة الفاسدة؛ إذ لم يحفظوها، بل جاروا ووقعوا في التناقض.

وهكذا ضلُّوا مرتين على صعيدي التصوُّر والسلوك كليهما؛ مرة بإقدامهم على التقسيم من حيث هو، ومرة فيما رافق التقسيم بين الله والشركاء المزعومين من الجور في القسمة نصفين، والتلاعب فيما بعد.

والآية الكريمة المشار إليها هي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾ الآية.

تلكم هي الجاهلية الأولى ـ وما أكثر ما تتكرر شؤونها وأوضارها، ولكن حسب المصطلحات المفتراة ومسالك التطور في الفكر الجاهلي ـ فيما تَنزل بالفرد والجماعة إلى هذا المستوى من التفكير الذي ينعكس تلقائياً على التصرفات والسلوك، حيث الإعراض الصارخ عما قام عليه الدليل الواضح، ونطقت به الحجة الساطعة، الأمر الذي يجعل المجتمع نهباً للمقاييس المهزوزة البلهاء التي تسلك بهذا المجتمع وأبنائه الذين ينشَّؤون في هذه العماية الطاغية: سبيل التآكل والضياع، ويفوِّت ما يفوِّت من الفرص التي لو ملىء الوقت فيها بالنافع المجدي لاستقامت الأمور، وسارت بُنى المجتمع على طريق القوة والإحكام.

وإلا فأية قاعدة يرضى عنها العقل السليم، تلك التي يرتد إليها هذا الذي اقترفوه من جعلهم لله مما خلق بقدرته وأنعم بفضله، نصيباً أشركوا أوثانهم فيه؟!

إنه الزعم الباطل وكفى! ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ثم ما هي الحقيقة التي استندوا إليها عند توزيع الأنصباء ـ على زعمهم أيضاً ـ؟ فكان الجور الذي بدا عنواناً آخر مؤكداً جاهلية التقدير عندهم والتدبير، سواء أكان ذلك في القسم، أم كان في الحكم، وهو ما كشفت عنه الكلمة الهادية في ختام الآية المذكورة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وانظر إلى الوجه الآخر من عطاء التعبير القرآني المعجز في ختام الآية ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾!!.

فلئن كان الوجه الأول حكماً على صنيع المشركين وما اقترفوه في هذا الباب بالسوء في القسم والحكم: إن طريق المؤمنين أبداً ـ وفي مقدمتهم من عاشوا تنزل آيات الله البينات ـ يصارعون الباطل والخرافة والتناقض المزري، ويعملون على اقتلاع المساوىء الضارة بالأفراد والمجتمع من الجذور...

إنه إعلان كريم عن واحد من مقومات البناء الحضاري السليم الذي يأخذ الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ دوره المتميز المنتج فيه، وفق سنن الله في خلق الإنسان وتكوينه وما أودعت القدرة الإلهية فيه من أهلية قادرة على الانتفاع بالتسخير الذي منَّ الله به عليه..

كل أولئك المجتمع فيه على اليابسة في بناه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

فعقيدة التوحيد التي يضيء بنورها العقل والقلب، وتطوّع الجوارح لأداء حقها كاملاً غير منقوص: هي الضمان للفرد أن يكون على الجادة في عدم العدول عن مقتضيات الفطرة، وفي استخدام العقل في ميدانه الطبيعي، والدوران مع الحق ـ أبداً ـ حيث دار.

كما أنها الضمان للمجتمع حين يسلمها قياده على الوجه الصحيح: في أن يقوم بناؤه على أفضل الأسس وأحكمها، الأمر الذي يؤهله للنماء الذي يتوخاه أهل الاستقامة المخلصون الذين تؤرقهم هموم الأمة: في كل مجال وميدان، دونما جهل بالواقع أو تجاهله، وما يطرأ من مؤثرات وتحديات، لا بد من مواجهتها، واتخاذ السبل الحكيمة النافعة في التعامل معها.

وإن ما كشف عنه القرآن في صنيع من أزرت بهم الوثنية، وعبثت بعقولهم، فهجروا الفطرة أن يكون لها وجود في تصرفاتهم، وراحوا يعطلون عقولهم أن تعمل عملها فيما يقدمون عليه من أحكام: فاهتزت القيم، واضطربت المعايير، وراحت الطاقات تضرب في أرض الخرافة والتقليد الأعمى، ناهيك عن مصائب عدم الوضوح في الرؤية!! كل أولئك أمور ليس وراءها إلا الهدم والفوضى.

وأين هذا وأمثاله من مسلك التواؤم الصادق الواعي، مع الإيمان الذي نشير إليه، والذي يعطي في نور عقيدة التوحيد ما يعطي من عظيم النتائج وأطيب الثمرات؟!.

وما أجمل أن يكون للعبرة التي أفاد منها المسلمون الأولون ـ وهم يحررون الإنسان رجلاً كان أو امرأة ـ من قيود الجاهلية، وسجن الأهواء الضالة، والمعايير المضطربة المهترئة، وما يصحب ذلك من بروز معالم الهدم والتخريب..

ما أجمل أن يكون لهذه العبرة اليوم ـ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. مكانها اللائق في مناهج التزكية والتربية والإعداد، كيما يتوافر للفرد والجماعة على صعيدي البناء المثمر والإعداد المتكامل؛ ما تقتضيه هذه العملية الكبرى في عمقها واتساع مجالاتها ـ في النفس الإنسانية وخارجها ـ من وعي شمولي، ووضوح في الرؤية ـ ضمن المساواة وتكافؤ الفرص والتمكن من الأخذ بالأسباب، كما تقتضيه السنن الإلهية ـ تلك الأسباب التي تنتج بإذن الله فرص التمكين في الأرض الذي يتيح أن يكون للدعوة الإلهية سلطانها المنجي من الهلكة، وأن تكون كلمة الله هي العليا على صعيد العقيدة والشريعة والأخلاق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

مع سورة النحل الدلالة القرآنية على مواطن الضعف من أجل التحول إلى الأفضل

ما كنا بصدده في صفحات قريبات ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة «الأنعام» المكية في شأن مسلك المشركين المجافي للفطرة والعقل، والذي كان من بعض دلائله كونُهم جعلوا لله مما ذرأ من الأنعام والحرث نصيباً يقابله نصيب لشركائهم، مصحوباً هذا التصرف الجاهليِّ بجور في القسمة فيما بعد.. هذا الذي كنا بصدده يذكرنا بما يقرره ويؤكده بإشارة إجمالية في سورة «النحل» المكية أيضاً، حيث التنديد يضع أهل الجاهلية في هذا الباب والوعيد الشديد بالمساءلة يوم الحساب.

ذلكم قول الله جل ذكره في السورة المشار إليها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

من هنا اعتبر الحافظ ابن كثير أن ما جاء هنا في سورة «النحل» نقع على تفصيله في سورة «الأنعام» قال رحمه الله: (يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضَّلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ولعل من الخير أن نورد آية سورة «الأنعام» مرة أخرى بنصِّها كيما تتضح المعالم أكثر وأكثر في هذا الجانب الكريم من الهدي القرآني، وتستبين العلاقة الحميمة بين هذه الآية وما هي من نظائرها في سورة «النحل» وهي الآية الأنفة الذكر.

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبق أن قلناه من أن القرآن الكريم هنا يكشف للمؤمنين عامة، ولأولئك الذين كانوا يمهِّدون بسلوكهم الأمثل بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، للمجتمع المبرأ من عقابيل الجاهلية وأعرافها ذات الانتماء ــ في كثير من الأحيان ــ إلى الوثنية العمياء والمفاخرة بما كان عليه الآباء والأجداد.. يكشف لهم ــ وهم أصحاب الرسالة الخاتمة التي تبنى في نور هذه الرسالة. الإنسان والحياة فتحسن البناء ــ يكشف لهم عن أن أولئك المشركين الذين اكتووا بنار الوثنية، قد أخطأوا وجنحوا عن طريق الهدى مرتين: مرة في القسِّم، لأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وهو رب كل شيء ومليكه، ومرةً حين جاروا في تلك القسمة المزعومة فجعلوا الأفضلية دائماً لشركائهم الأوثان.

والحق أن هذا الجور في القسمة التي زعموها ورتبوا النتائج عليها خضوعاً للهوى وتسويلات النفس والشيطان كما أشارت الآية الكريمة: له نظائر متعددة في المعتقد والسلوك عندهم.. وهي قضية كانت لها انعكاساتها على الفرد والأسرة والمجتمع جميعاً.

ها هم يزعمون أن الملائكة عليهم السلام بنات الله؛ ومن علم اليقين وحقٌّ اليقين أن الله تباركت أسماؤه وصفاته، هو ــ سبحانه ــ الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. والملائكة خلق من خلقه، عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

ذلكم قوله جَلَّ ذكره في سورة «النحل»: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

هكذا يقسمون كما يشاؤون وتشاء لهم أهواؤهم، كما قال جل شأنه في سورة «الطور»: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وفي سورة «النجم» نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

وإنما زعم هؤلاء ذلك ـ وكم تفعل الجاهلية في ظل انحسار العقل وجفوة الفطرة من أفاعيل ـ لأن لهم موقفاً جائراً من المرأة، لا يتسق مع إنسانيتها وكرامتها؛ ولذلك رد الله عليهم فريتهم، وسفَّه رأيهم، وكشف ـ مستثيراً العقل للمناقشة والحكم ـ عن تناقض القسمة التي زعموا عندما جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور... عندما جعلوهم إناثاً، ثم نسبوهم إليه.. تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ففي سورة «النحل» بعد أن عرضت الآية السابعة والخمسون لتلك القضية الآثمة المفتراة بقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾: جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

هكذا يزعمون الإيمان بالله وأنه الخالق البارىء، ثم ينسبون إليه الملائكة ولادةً وهم إناث على زعمهم!! فأين العدالة في هذه القسمة الفاسدة مع الموقف الهابط من الأنثى؛ لأنها قد تعرِّض القبيلة للعار ـ كما يتخيَّلون ـ وليس لها تلك القوة التي هي للذكور في الذود عن القبيلة وحماية الذمار، ومقارعة الأعداء! فالأنثى شيء، والذكر شيء آخر، ومع ذلك على نهجهم الهابط، لم يكتفوا بادعاء أن الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، له نسْلٌ، بل هذا النسل أيضاً من درجة هابطة ـ على زعمهم ـ وهم الإناث، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن ما جرى عليه المنهج الرباني في الدلالة على مواطن الأذى في التفكير والسلوك، حيث يقع المجتمع تحت سلطان الجاهلية ويتلظى بنارها: يحمل القدر الوافر من إعداد الفئة المؤمنة التي كانت تعاني ما تعاني في العهد المكي: لتحَمُّل العبء في بناء المجتمع

البديل عن المجتمع الجاهلي، المجتمع الذي يتنزه المنتمون إليه أفراداً وأسراً عن هذا الاضطراب في التفكير، والتناقض في ترتيب الأولويات، ويرتفعون عن ذاك السلوك الذي ليس من كرامة الإنسان، ولا من العقل السليم في شيء.

وطابع الاستمرارية في عطاء هذا المنهج المبارك الذي تضيء في أرجائه معالم الكتاب العزيز: يوجب الاستمساكَ به والعمل على صياغة الإنسان والمجتمع على هديه، بعيداً عن قيود الزمان والمكان، شأن كل قضية يطلب فيها التحويل عن الجاهلية أو ما هو منها بسبب ـ على اختلاف الأسماء والمصطلحات التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ إلى الإسلام بمنهجه الرباني وهديه القويم.

وهذا لا يعني انحساراً عما تلقيه التجارب والمعاناة على طريق العاملين، والإفادة من كل ما وصل إليه العلم النافع من مراحل، بل العكس هو الصحيح، خصوصاً وأن الإسلام يقدر العلم قدره ويوليه ـ كما هو معلوم ـ الاهتمام المتميز، ويقدُر التجربة قدرها، ويدعو إلى الانتفاع حتى بتجارب الماضين وسيرهم دون وكس ولا شطط، كما نرى في القصص القرآني وقصص السنة النبوية المطهرة.

فما كان صواباً تبين من خلال النص أو الاعتبار: انتفعت به الأمة وسلكت سبيله، وما كان غير ذلك انتفعت بالبعد عنه وعن كل ما يمكن أن يكون من أسبابه ودواعيه، وسبحان من قال في كتابه المُحْكَم الآيات: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].